# النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى

د. سعد عبد الله البشرى(*)

خطا المجتمع الأندلسى منذ أن استقر المسلمون فى شبه الجزيرة الأيبيرية خطوات سريعة فى مدارج التطور الحضارى والازدهار المدنى. وقد احتفظت لنا مصادر التاريخ والحضارة بالكثير من الأمثلة والبراهين على ما حققه الأندلسيون من حضـــارة ومدنية راقيـــة لازالت تدهش الدارسين ، وتثير اعجاب الباحثين فى تاريخ الحضارة البشرية . وقد اخترت أن أدرس جانبا مهما من جوانب الحضـــارة الأندلسية ، وهو ما يتعلق بظاهرة النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى ، فتتبعنا بالدراسة النشاط الحضارى المتصل بالنظافة والصحة العامة فى الأسواق وما تضمه من الحرف والصناعات ، وكذلك فى الطرق والدروب والساحات والجوامع ، ومراعاة صحة البيئة ومكافحة التلوث بصورة عامة . هذا فضلا عن نظافة البـــدن واهتمام المجتمع الأندلسى بالاستحمام وظاهرة انتشار الحمامات بوصفها ظاهرة حضـــارية راقية ، وتأثير ذلك فى المجتمعات الأوربية .

أما عن مراعاة النظافة ومكافحة الأقذار والتـــلوث والنفايات فى الأسواق، وهى الظاهرة التى يترتب على اهمالها أوخم العواقب الصحية مما يؤدى الى تدهور خطير فى رقى الأمم وصعودها الحضارى ، فمن المعروف أن ولاة الأمر والقائمين على شئون المجتمع الاسلامى عنوا بهذا الأمر عناية كبيرة ، وخصصوا لذلك وظيفة كبيرة هى وظيفة الحسبة، واحتفظوا لنا من خلال ما كتبوه فى شئون الحسبة بمعلومات قيمة ونادرة عن اختصاصات المحتسب وواجباته فيما يتعلق بمراقبة الأسواق والباعة، للتأكد من اتباعهم قواعد الأمانة والنظافة وسلامة ما يقدمونه للناس من بضائع ، وخاصة فى كل مايتعلق بالطعام والشراب. ويأتىفى المقدمة أهل

---

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ ـ كلية الشريعة ـ جامعة أم القرى .

الحرف والصناعات والمهن المختلفة . ولتيسير هذه المهمة وتطبيقها على خير وجه نبه ابن عبدون التجيبى - وهـو من كبـار المحتسبين فى الاندلس - الى أهمية ترتيب الصـناع والحرفيين ، وذلك بتخصيص موضع لكل حرفة أو صنعة ، وذكر أنها أجل وأتقن(١) .

وقد لفتت هذه الظاهرة - أى العنـاية بتنظيم أماكن الحـرف والصناعات المختلفة - نظر المؤرخين الذين أشادوا بما رأوه وشاهدوه وسمعوا به ، فهذا الادريسى يشير على سبيل المثال الى مدينة طلبيرة فيقول عنها : ( وهو بلد واسع المساحة شريف المنافع وبه أسواق جميلة الترتيب وديار حسنة التركيب .. )(٢) .

كما يلاحظ أنه كان لكل صنعة من الصناعات أمين يعود اليه الناس فى حال الاختلاف للاستهداء برأيه ، وهذا تنظيم حضارى كبير لازلنـا نشاهده ماثلا فى حياتنا المعاصرة .

ولنا أن نتساءل : ما العلاقة بين ترتيب الحرف والصناعات وبين النظافة وصحة البيئة ؟ فنقول : ان لذلك عـلاقة وثيقة ، اذ ينبغى أن تكون أسواق ومحال المأكولات والأطعمة والأشربة فى أماكن بعيدة عن أماكن الحرف المتعلقة بالدباغة أو بيع الفحم والحطب والجص،وغير ذلك من المهن التى يترتب على مزاولتها والاشتغال بهـا ألوان من التلوث والنفايات المضرة بالانسان وصحة البيئة ، بل لقد أمر باعة الأسماك بأن يتخذوا موضعا بمعزل عن الطريق لما يتسببون فيه من روائح ولما يبدو عليهم من رثاثة الحال(٣) .

وهذا ابن عبدون يؤكد على ما أشرنا اليه اذ يقول : (يجب أن بكون لبيع الحطب موقف ولا يترك أحد منهم يمشى فى الأسواق فانهم يؤذون الناس ويمزقون الثياب . وان عثر على من يمشى بالحطب فى الأسواق أدب.وكذلك بائعو الجير وغير ذلك يتخذ لهم مواضع فتقصدهم الناس. وبائعو الفحم يجب أن تكون لهم مجارد لا مجارف،فانها تجرف التراب والغبار ويؤمروا بعزل الغبار منه . ويباع بجهة لمن شاء أن يشتريه )(٤).

وتجدر الاشارة الى أن تعدد الوان الحرف والمهن والصناعات أدى الى مراقبة ورصد واسعين من قبل المسئولين عن الأسواق وصحة البيئة ، وأدى هذا الى وضع معايير وتوجيهات محددة فى سبيل المحافظة على مستوى النظافة الخاصة والعامة فى المجتمع الأندلسى،ومكافحة كل ما يؤدى الى تشويه المظهر الجمالى والصحى فيه ، وبالتالى سوف نتطرق الى الحديث عن تلك المعايير والتوجيهات للحرفوالمهن المتصلة بمحور البحث ، وبخاصة ما هو متصل بالأطعمة والأشربة .

وهنا تجدر الاشارة الى أن المحتسبين الاندلسيين شددوا على أهمية أن يكون المشتغل بالحرف المتعلقة بالأطعمة والمأكولات والمشروبات ـ لائقا صحيا لممارسة مهنته ، فلا يشتغل بها مجذوم ، أو مبروص(٥) ، أو من به مرض جلدى ، أو مرض معدى . وهذه لفتة حضارية راقية لازلنا نلمس أهمية تطبيقها فى عصرنا الحاضر . وفى حرفة الجزارة نبه المحتسب الى ضرورة ذبح الحيوانات وسلخها فى القصارى ، وعلى المشتغلين بهذه المهنة أن يجمعوا الدم وزبل الكروش وينقلوها خارج الأسواق أو الى الأماكن النائية . وعلى الجزار أن يغسل رؤوس الضأن قبل بيعها وذلك لضمان أن لا يؤذى مشتريها الناس بما قد يكون فيها من دماء فى الطرق الضيقة أو أماكن الزحام . وكان على الجزارين أن لا يضايقوا المارة بما يعرضونه من اللحوم المعلقة خارج حوانيتهم مما يكون سببا فى تلويث ثياب المارة فضلا عن تضييق الطريق(٦) .

كذلك كان على الجزارين تنظيف مواضعهم وازالة ما قد يكون فيها من فضلات اللحوم والعظام وغيرها ، والتنزه عن الأقذار ، ومكافحة الذباب ، وأن يستخدموا لتقطيع اللحم لوحا من الخشب صليبا نظيفا . وعليهم بعد الانتهاء من العمل أن يغسلوا أدواتهم وما يقطعون عليه من ألواح وتغطيتها وحفظها بعيدا عن الحشرات ، وكان عليهم رش الملح على الألواح التى يقطعون عليها لتحول دون حدوث العفونة وتراكم الأقذار(٧) .

وكان بيع لحوم الطيور وبعض الحيوانات البرية يخضع لارشادات

معينة ، فكان لا يباع الحجل والطير المذبوح الا بعد نتف ريش مؤخراتها؛ وذلك ليتبين للمشترى فسادها أو جـودتها ، كما لا تباع القنليات(٨) الا بعد سلخها ؛ ليتضح ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ، وذلك لأن بقاءها فى جلودها مداعاة لفسادها وتعفنها(٩) .

أما باعة الأسماك والمشتغلون بقليها فكانوا يؤمرون باتخاذ تدابير محددة لضمان النظافة والتنزه عن الأقذار والتلوث.وأول ماكانوا يلزمون به أن يتخذوا لهم مكانا خاصا بحرفتهم ، وقد سبقت الاشارة الى الزام باعة الأسماك باختيار موقعهم بمعزل عن الطريق ، نظرا لما يتسببون فيه من روائح ، ولما هم عليه من هيئة قد لا تكون حسـنة ، كذلك كان عليهم تنظيف ساحاتهم ، وينهون عن تمليح الأسـماك التى مر عليها يومان أو ثلاثة ، لما قد تولد فيها من العفونة اذ من الأفضـل تمليحه طـريا(١٠) .

ويتبع هذه التوجيهات الزام باعة الأسماك بعدم حملها فى أيديهم والتجول بها فى الأسواق والطرقات ، بل يحملونها فى أوعية أو آوان نظيفة لئلا تلوث أثواب المارة . ومن يخالف هـذا الأمر يؤدب بوضع ما يحمله فى حجره(١١) .

والواقع ان المشتغلين ببيع وعمل الأطعمة كانوا أكثر أهل السوق استهدافا من قبل القائمين على مكافحة الغش ومحاربة التلوث والأقذار ، وكانت التوجيهات والتعليمات التى يلزمون باتباعها صارمة وعليهم التنفيذ بها ، فمنها : أن لا يطبخوا بالليل أو السـحر ولا فى الأماكن النائية والمواضع الخفيـة ، وعليهم أن يتخـذوا لهم حوانيت مجصصة(١٢) ومسطحة يسهل تنظيفها وغسلها فى كـل حين ، ويلزمون أثناء الطبخ بتوفير الانارة والضوء بحيث يتم ذلك وفق طريقة سليمة ونظيفة وتحت اشراف العارفين منهم . وفى أثناء الطبخ يتعهد أحدهم بذب الذباب عن الأوانى واللحوم حتى يتم الطبخ على أحسن ما يكون ، وبالتالى يطمئن الناس الى نظافة وأمانة الطباخ وما يطبخ . ويشير السقطى الى أهمية الاشراف الدقيق على عمل الطباخين ومعرفة ما يطبخون ، فيذكر حالات من الغش والتلاعب التى كشفها أثناء ممارسة عمله كمحتسب ، حتى أنه

قبض على عدد من الطباخين الذين كانوا يمارسون مهنتهم فى خفاء ، عندما تبين له قيامهم بذبح حيوانات قذرة كالكلاب وطبخ لحمها . ولهذا نبه الى أن يتم الطبخ فى مواضع قريبة وميسور الاطلاع عليها من قبل أهل الحسبة وأعوانهم(١٣) .

وكان المحتسب يتفقد أحوال الطباخين صباحا ومساء ، فى الصباح ينظر هو وأعوانه فى نوع اللحم الذى يطبخه الطباخون ومدى نظافته وصحته ؛ وفى المساء يقوم المحتسب أو أعوانه بجولاتهم الميدانية فيتفقدوا أماكن الطبخ ومدى مراعاة الطباخين لقواعد النظافة والأمانة،بعدم خلط ما بقى من اللحوم مع اللحوم فى اليوم التالى وتقديمها للناس على أنها لحوم طازجة وجديدة ، وفى ذلك تحايل ومجافاة للنزاهة(١٤) .

وكان على القلائين تنظيف السمك قبل قليه واستخراج ما فى جوفه وتنظيفه بصورة تامة ، وأن يراعوا نظافة الزيت ، فلا يقلوا الأسماك فى زيت عكر وردىء ، اضافة الى مراعاة النظافة فى أدوات القلى فيتعهدوا أوانى القلى بالغسل وازالة ما علق فيها من الزيوت والأطعمة . وكان المتهاون فى ذلك يلقى العقوبات الصارمة(١٥) .

ويشير التجيبى الى قواعد صحية تراعى فى اختيار أدوات الطبخ وما يستلزمه من أوان وقدور ، فينبه الى عدم صلاحية الأوانى المصنوعة من النحاس فى عملية الطبخ ، وفضل عليها ما يصنع من الحديد اذا ما روعى غسلها وتنظيفها باستمرار والحيلولة دون صدئها . وذكر أنه لا بأس بأوانى القصدير قدورا وصحافا ، وكذلك ما يصنع من الزجاج لسهولة تنظيفها . ونبه الى الحرص على تغطية القدور وغيرها عند الطبخ باغطية مثقوبة ثقبا أدق ما يكون.ونهى عن الطبخ فى أوانى النحاس اذ كرر ذلك عند حديثه عن القلى ، فذكر أنها خطيرة جدا ، وخاصة اذا ما قلى فيها مواد كثيرة الدسم تختلط ببعض مكونات النحاس(١٦) .

ولم يكن التجيبى وحده هو الذى نصح بعدم الاعتماد على أدوات الطبخ المصنوعة من النحاس ، بل أشار الى ذلك عدد من الأطباء وأهل الحسبة ، منهم : الطبيب ( ابن زهر ) الذى يقول : ( يجب أن تعلم أن

كل شيء فيه الخل اذا لقى آنية نحاس حدثت فيه قوة رديئة مذمومة تضر بالابدان ، وبالجملة فان النحاس يجب أن يتجنب طبخ الأشربة فيه الا ان بولغ فى تبييضه بالقصدير(١٧) ٠

كما ان ابن عبدون والسقطى نبها الى خطورة استخدام قـــدور النحاس عند الهراسين والقلائين وغيرهم ، وذكر ، أنها لا تكون صالحة للاستخدام الا اذا كانت مرصصة ، اذ يتولد عن امتزاج الزيت بالنحاس اثناء الطبخ مادة سمية خطيرة(١٨) ٠

فاذا انتقلنا الى غير ذلك من العاملين بالأسواق فى بيع وصناعة الاطعمة والمأكولات كالخبازين ، لمسنا مدى عناية وحرص القائمين على نظافة وسلامة البيئة بفضل ما وضعوه من قواعد صارمة من أجل المحافظة على النظافة والنزاهة وسلامة الناس ٠

ذلك أنه كان على الخبازين غسل أدوانهم وأوانيهم التى يعجنون فيها كل يوم ، وكذلك ما يرتدونه من ملابس أثناء العمل ، ويمنعون من ممارسة أعمالهم قبل الفجر لحداثة عهدهم بالنوم ، وبالتالى يتهاونون فى مراعاة قواعد النظافة ، ويلزم الخبازون بالاغتسال والنظافة فى أكثر الأوقات وخاصة فى أيام الصيف(١٩) ٠

وعلى الخبازين الاهتمام بنظافة الماء الذى يعجنون به ، وتجنب أخذه من المواضع القذرة ٠ وكذلك مراعاة ذلك عند جمع الحطب لما يترب عليه من الاضرار بالخبز ، وينبهون أيضـــا الى المحافظة على نظافة رقائق العجين قبل ادخالها الفرن ، وذلك بتغطيتها بقماش نظيف يحول دون سقوط الأقذار عليها ، وعند الانتهاء من العمـــل يقومون بتنظيف أدواتهم ، ومنها ما يفردون به الخـــبز ، وما يوصلونه به الى داخـــل الفرن ؛ فتجرد الأدوات وتغسل ، كما كان عليهم أن يكنســـوا الفرن من الرماد والتراب قبل أن يبدأوا العمل فيه من جديد فى اليوم التالى(٢٠)٠

ومن القواعد التى يجب الالتزام بها لمن يبيع الأطعمة ومنها الخبز أن يكون البائع نظيفا سليما من الأمراض ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك ،

ولأهمية أن يكون الخبز نظيفا سليما من الاقذار فقد شدد المحتسب فى أن لا يبيعه حوات أو جزار أو من تستقذر مهنته ۰ وكان على باعة الخبز تغطيته وحفظه من وقوع الذباب والأقذار عليه ، وأن يبتعدوا عن مجاورة أصحاب الحرف التى يغلب عليها طابع التلوث والقذارة،كبائعى الأسماك ومحترفى البيطرة والحجامة ، ويلزم باعة الخبز بتنظيف ملاحتهم وساحاتهم(٢١) ۰

وامتد هذا الاهتمام بالنظافة الى بقية أصناف الباعة وأصحاب المهن الأخرى ، فقد نبه أهل الحسبة الى ضرورة أن يهتم اللبانون والجبانون بتنظيف أوانيهم ومواضع عملهم ، وأن يكون لهم موضع خاص بهم بعيدا عن المشتغلين بحرف يتولد عنها تلوث أو قذارة ۰ وكان على المحتسب أن يمنعهم ـ أى اللبانون ـ من أن يبيعوا مع اللبن أو الجبن ما لا يتوافق معه كالسمك أو اللحم(٢٢) ۰

وفيما يتعلق بالأدوات التى يغرفون بها اللبن فيلزمون بأن تكون من حنتم(٢٣) أو من خشب ، ويحظر عليهم استخدام ما يصنع منها من النحاس لما فيه من ضرر ۰ وكان على اللبانين مراعاة النظافة بصورة دقيقة وخاصة فيما يتصل ببيع اللبن الرائب لأنه سريع العفن والتخمر ، ولهذا اشترط ابن عبدون أن لا يباع اللبن الرائب الا فى الزقاق ، لسهولة غسلها وتنظيفها ۰ وأما الذى فى المجابين فقد يتعرض للفساد والتلوث(٢٤) ۰

وقد اتبع المشتغلون بصناعة الهريسة والمجبنات تلك القواعد الصحية ، فكان عليهم الاهتمام بتنظيف أبدانهم وشعورهم ، والحرص على نظافة أوانيهم ومن تحتها أغطية أخرى(٢٥) ، وذلك مبالغة فى نظافة ونزاهة ما يحترفونه من أعمال ، حيث أنه لا يؤمن ان يتسرب اليها بسبب التهاون كثير من ألوان التلوث والأقذار ، وهو أمر خطير لارتباط ذلك بصحة الانسان وحياته ۰

أما المشتغلون ببيع الخضار والفواكه فكان عليهم أن يعنوا عناية كبيرة بنظافة مايعرضونه منالخضار والفواكه ؛ كما كان منالأهمية بمكان

ضرورة غسلها وازالة ما علق بها من الأتربة ٠ ولا يكون هذا الغسل فى البرك أو الصهاريج ، لما قد يكون فيها من الأقذار بل يجب غسلها على ضفاف الأنهار أو المياه الجارية العذبة(٢٦) ٠

## فى الطرقات والساحات :

حظيت الطرق والدروب فى المدينة الأندلسية بعناية فائقة من قبل القائمين على رعاية المظهر الحضارى والوجه الجمالى لمرافق المدينة ٠ وكان عليهم لبلوغ ذلك الهدف الحضارى الراقى أن يضعوا قواعد وتنظيمات دقيقة تثير الاعجاب ، وخاصة بمقاييس ذلك العصر ٠ فمن هذه القواعد الحضارية : أن يلتزم أفراد المجتمع بنظافة الدروب والطرق، وذلك بعدم طرح النفايات والأقذار فيها ، والعمل على اصلاح مستوى الطريق ، وذلك منعا لتجمع المياه والأوحال فى المواضع المنخفضة منه٠ وعلى أصحاب البيوت والدور ـ ان كانت لهم قنوات تحمل المياه الى الطريق ـ أن يعملوا لها سربا تنصرف فيه المياه والأقذار بعيدا عن الأعين ، ويمنع من نصريف المياه والأقذار فى الطريق(٢٧) ٠

ومن السلوكيات المذمومة التى حاربها المجتمع الأندلسى قضاء الحاجة فى الطرقات والساحات ، لما لذلك من تأثير سىء سواء على مظهر المدينة الحضارى أو صحة الانسان ٠ وكان على القائمين بأمر النظافة ردع من يقوم بذلك السلوك المشين ، فان عاد أدب ، وان كان صغيرا فعلى وليه التعهد بعدم تكرار ذلك(٢٨) ٠ وفى هذا اشارة مهمة الى ما أولاه المجتمع الأندلسى لنظافة المجتمع من اهتمام وعناية ٠

أما النفايات والقمامة المتجمعة من البيوت والأسواق فكانت تنقل خارج المدينة ٠ وكان المحتسب وأعوانه حريصين على مكافحة الأقذار وعدم تكديسها داخل الأحياء وبين المنازل والدور ، اذ على السكان أن يبادروا الى نقل ما تجمع منها بعيدا عن الأحياء والتجمعات السكانية ٠ وعلى صاحب الدار فى حالة تنظيفه ما تجمع من مياه وأقذار المجارى فى منزله أن ينقل ذلك بعيدا عن الدور ٠ وقد تستخدم تلك الفضلات فى المزارع ، أو تجمع فى مواضع معلومة معدة لذلك ٠ ويجب على من فتح

سربا وأفرغه من المياه القذرة والفضلات أن ينقلها الى خارج المدينة ، وعليه تبعا لذلك أن يسوى موضع السرب بما يتفق مع مستوى الشارع وبما يحقق السلامة والنظافة للعابرين(٢٩) .

وجدير بالذكر ان الاندلسيين من العاملين فى تنظيف المجـــارى والقنوات توصلوا آنذاك الى صنع أو تكوين مواد معينة يستخدمونها فى تفتيت ما تصلب من المواد داخل المجارى أو القنوات ، يقول أبو مروان ابن زهر عندما أشار الى تحليل الأورام بالأدوية : ( فانك متى الححت مدة فى التحليل أبقيت من الخلط المرض بقية لا تقبل التحليل كأنها قد تحجرت ، وان العوام يشعرون بمثل هـــذا فانا نراهم متى أردوا أن يخرجوا جوهرا غليظا من القنوات المدفونة لم يقتصروا على تقطيعــه بالغسل حتى يخلطوا معه ما يميعه فيصبون الماء فى القنوات فتســهل جريته .. )(٣٠) .

وكان على الكنافين أو المشتغلين بتنظيف ما يعــرف فى عصرنا الحاضر بالمجارى أن يتلزموا قواعد محددة فى أعمالهم : وذلك حرصا على نظافة البيئة ، فالزموا فى عملية نقل المياه والاقذار المفرغة من الحمامات والمواضع التى تتجمع فيها باستخدام أكواب كبيره ، يحمل كل كوب اثنان ، ليضمنا بذلك عــدم سقوطه أو تناثر ما فيه من الأقذار . وآلزموا أيضا بأن يحمل احدهما أثناء النقل جرسا ينبه المــارة الى الابتعاد عنهما ، وحظر على أحدهما أن يحمل لوحده كوبين : لما يترتب على ذلك من أضرار وفساد يتنافى مع ما يجب مراعاته من نظافة ونزاهة البيئة والمجتمع(٣٢) .

ومن التنظيمات الحضارية الراقية المحافظة على نظافة الطــرق وجمالها ومكافحة كل ما يخالف ذلك ، فيحظر انشاء الحوانيت التى يمارس أصحابها حرفا ينتج عنها تلوث البيئة أو ممارسة تلك الحرف فى الطرقات . وقد نبه بعض المحتسبين الى أهميـــة ذلك ، وضرورة العناية بنظافة وسعة الطرقات وذكروا ( أن عمرا رضى الله عنه أمر بهدم كير الحداد الذى مر به فى الطريق ) كما أمروا بضرورة منع الصباغين ومن شاكلهم من نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرق ؛ لما تتسبب فيه من

تلويث المارة . وكان يحظر انشاء الأفران فى الطـــرق لما تســببه من تلوث(٣١) .

وألزم أصحاب الحرف والمهن أن يتخلصوا من النفايات والأزبال التى تتخلف عن صناعاتهم وبيعهم وكل ما يتصل بممارساتهم الحرفية ، كالمشتغلين ببيع الفواكه والخضار والحبـــوب ، والعاملين فى التجارة والحدادة والدباغة والحطابة وبيع الفحم وغير ذلك .

**الجوامع ـ الأنهار ـ المقابر :**

كانت الجوامع والمساجد فى مقدمة المواضع التى حظيت باهتمام المسئولين عن النظافة فى المجتمع الأندلسى . وما من شك فى أن المسجد نال عناية فائقة فى الاسلام ، وكان الاهتمام به وبنظافته وطهارته من الأمور التى اشار اليها القرآن الكريم وســـنة المصطفى عليه السلام . وبالاضافة الى ما تقدم فقد كان للأندلسيين آدابهم وسلوكياتهم الحضارية التى جاءت لتؤكد عظمة المسجد وحرمته ومنزلته . وفى ضوء التطور الحضارى الذى بلغه الأندلس وضع بعض العلماء والمحتسبين قواعد تحفظ للمسجد نظافته وحرمته وقدسيته . فلـــكى يبقى المســـجد على نظافته وطهارة فرشه كان على المصلين أن لا يدخلوه بنعالهم أو بأحذيتهم فى أقدامهم ، وأن ينتبهوا الى ازالة ما قد يكون عالقا بها من الأوساخ والطين وحك بعضها ببعض أو فى الأرض قبل الدخول . وكان من الأمور المرعية مراعاة نظافة المســـاجد ورحابها وما حـــولها ، ومنع الفـــاء الأزبال والقاذورات فى رحابها وما حولها ، وينهى بحزم من يقدم على ذلك ، فان عاد عوقب بلا تردد(٣٣) .

ومما يتصل بنظافة المسجد العناية بفرشه ، فان بلى الفرش نقل الى حيث يحتاج اليه فى السجون أو للفقـــراء . وكان من السلوكيات الحضارية والانسانية أن تبنى سقائف بجوار الجامع ليقيم فيها الغرباء أو من انقطعت بهم السبل(٣٤) .

وقد روعى فى أرضية الجامع أو المســـجد أن تكون فى اعتدال واستواء ، واذا كان فيها موضعمنخفض يسوى بحيث لا تجتمع فيه مياه

الأمطار والأوحال ، وقد رتب لتنظيف الحمامات فى الجامع عامل أو عمال يقومون بتنظيفها وتصريف ما يتجمع فيها من الأقذار ، وهؤلاء العمال أجورهم أو مرتباتهم من الأحباس(٣٥) ٠

كذلك كان للمسجد موظفون يقومون على نظافته والمحافظة عليه من الأوساخ ٠ وقد وضع بعض المحتسبين لهؤلاء الموظفين قاعدة يسيرون عليها ، فكان عليهم كنس المسجد أو الجامع ونفض الحصر والفرش فى كل يوم اثنين ، وكل يوم جمعة ، ويضاف الى ذلك تنظيف قناديلها فى أول يوم من الشهر وفى منتصفه(٣٦) ٠

ولما كان يوم الجمعة يشهد اجتماع اعداد كبيرة من المصلين فى الجوامع ، فان بعض الباعة استغلوا هذه المناسبة ليعرضوا فى رحاب الجوامع سلعهم وحاجاتهم ، لذلك أمر عمال الجوامع بتنظيف رحاب الجامع فى صباح يوم الجمعة كما أمر الباعة بعدم بسط سلعهم وبضائعهم قبل الصلاة وانما بعدها ٠

ومن دلائل عنايتهم بطهارة المسجد ونظافته تأكيدهم البالغ على أن لا يتم تأديب الأطفال والصبيان فى رحاب الجامع ، وذلك لعدم تحفظهم واحترازهم من النجاسات التى قد تكون فى أقدامهم وملابسهم ، ويتم تأديبهم وتعليمهم فى السقائف(٣٧) ٠

ويضاف الى ذلك حرص القائمين بأمر نظافة أماكن العبادة على تنزيه الجوامع والمساجد ليس فقط من ألوان التلوث والأقذار التى يتسبب فيها الانسان ، وانما أيضا مما تتسبب فيه بعض الحيوانات ، فقد حظر على المصلين ربط دوابهم فى رحاب الجامع لما ينتج عن ذلك من قذارات ونجاسات اذا راثت أو تبولت ، وهذا يؤدى الى انتشار النجاسة وبالتالى عدم صلاحية الموضع للصلاة فضلا عما يلحق الناس من الأذى ٠ وقد شدد المحتسب على اخراج الدواب الى مواضع بعيدة عن أماكن الصلاة(٣٨) ٠

★ ★ ★

ومن ألوان العناية بالنظافة والنزاهة التى شـملت شتى مرافق الحياة فى المجتمع الاندلسى ، حفاظا على صحة البيئة والانسان ، العناية بمصادر المياه ، مثل . الأنهار ، والأودية ، وينابيع المياه ، والعيون . وقد نبه المحتسب ابن عبدون على أهمية المحافظة على ضفة الوادى الذى هو مرسى المدينة ، وذلك بحظر أن يباع منه شىء أو يبنى فيه ،نظرا لأهميته باعتباره منفذا بحريا يحط فيه التجار والمسافرون والغرباء ، وموضعا لاصلاح السفن،فهو ملك للدولة لا يتصرف فيه غيرها(٣٩) . وقد استهدف هذا نوع من التنظيم الرقى بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، وفيه مالا يخفى من النزوع نحو تحقيق صورة جمالية للبيئة الأندلسية .

وكان المحتسب حازما فى مكافحة ألوان التلوث وخاصة فى الانهار والأودية والعيون ، كما كانت هناك مواضع تم تخصيصها للسقائين يستقون منها . من ذلك أنه نبه الى ضرورة منع الغسل والاغتسال بالقرب من مواضع السقاية لما يؤدى اليه ذلك من تلوث وقذرات .وكان على من يريد الغسل وخاصة من النساء أن يذهبن الى موضع معين بحيث لا يتسببن فى تلويث المياه الجارية . كذلك كان من الأمور التى يحظرها المحتسب أن يعمد الناس الى رمى الأقذار والنفايات على ضفة الوادى أو الأنهار ، ومن يفعل ذلك كان يعاقب بحزم(٤٠) .

وتجدر الاشارة الى أهمية ما أولاه أهل الحسبة من عناية للمحافظة على الثروة النباتية والسعى الى انمائها وغراسة ألوان الأشجار والنباتات لزيادة مساحة الرقعة الخضراء ، فكان من واجبات الدولة حماية الغابات وتشجيع الساكنين بقرب ضفاف الأنهار على زراعة الأشجار والمحافظة على الغابات وصيانتها من العبث والتقطيع الجائر(٤١) لما تمثله من ثروة اقتصادية ، وما تعكسه من جمال طبيعى ، فضلا عن دورها فى تقليل التلوث فى البيئة والهواء .

ومن مهام المحتسبين والمسئولين عن النظافة وصحة البيئة فى المجتمع الأندلسى السعى الى محاربة المظاهر الاجتماعية الفاسدة التى تتسبب فى تشويه المظهر الحضارى والوجه الجمالى للمدينة ، فكان يحظر التسول وما يسلكه البعض من مسالك قبيحة فى سبيل استدرار

عواطف الناس ، فهناك من يتخبط فى الأسواق ويوهم الناس أنه مصروع ، وهناك من يتظاهر بالشلل أو يبدى فى جسده بعض القروح والأورام ( وذلك كله منهم حيلة لأخذ أموال الناس بالباطل ، فيجب على صاحب الحسبة أن يقف من ذاك كله على صحته ويعاقب من يحتل منهم بتلك الحيلة )(٤٢) ٠

ولم تقتصر عناية المسئولين عن نظافة البيئة على ما تقدم ، اذ امتد هذا الاهتمام الى ما يتصل بحياة الانسان بعد موته بمراعاة حرمته وكرامته من خلال العناية بالمقابر والحرص على نظافتها وحرمتها ومنع العبث والفساد بها ٠ وكان من القواعد المتبعة أن يلتزم حفارو القبور بتعميقها بحيث لا تنتشر روائح الموتى ، وفى الوقت نفسه تكون بعيدة عن عبث السباع ، وأن يراعى حرمة الميت فيستر ما يظهر من العظام ولا يتركوه على وجه الأرض(٤٣) ٠ وقد عاب ابن عبدون على أهل بلده ـ اشبيلية ـ ضعف اهتمامهم بهذا الجانب اذ عمدت طائفة من الناس الى السكنى فوق المقابر بل وأجروا فوقها أو خلالها السروب والمجارى ٠ وكان لبعض المحتسبين ـ كما يقول ابن عبدون ـ موقف حازم ازاء تلك الظاهرة ، فهدموا ما بنى فى المقابر وما أنشىء بها من الدور ، ونصح ابن عبدون بتخصيص بعض المواضع ليكون مقبرة لأهل اشبيلية٠وقد نبه ابن عبدون الى المحافظة على نظافة المقابر وتطهيرها من الأرجاس والأقذار ، وأن لا يستغل موضعها بعض أهل الحرف المستقذرة كالمشتغلين بالدباغة ومن يشاكلهم(٤٤) ٠

## النظافة الشخصية :

فاذا انتقلنا الى الحديث عن النظافة الشخصية فى المجتمع الأندلسى وجدنا ما يؤكد ويقرر هذا المسلك الحضارى الراقى ٠ يذكر المقرى نقلا عن ابن سعيد أن ( أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك فيما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه ، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها ٠٠)(٤٥) ٠

والنظافة الشخصية ترتبط بالنواحى التالية : الجسد ، الملبس ، والمنزل . فيما يتعلق بالجسد ونظافته وطهارته نذكر أن الأندلسيين عنوا عناية بالغة بنظافة أجسادهم ، فكانت ظاهرة الاغتسال والاستحمام من السلوكيات الاجتماعية التى اهتموا بها اهتماما بالغا . ولذلك أكثروا من بناء الحمامات العامة حرصا على نظافة أبدانهم وطهارة أجسامهم . ولم يكن ارتياد الحمامات وقفا على الرجال بل وجدت حمامات خاصة بالنساء أيضا .

وكان الأطباء يوصون بارتياد الحمام والمحافظة على الاستحمام ، لما فى ذلك من فوائد صحية واجتماعية ، فهو ( ينقى الجلد ، ويزيل الوسخ ، ويطهر البدن ، ويفتح مسامه ، ويحلل الأبخرة ، ويرطب الأبدان وينميها ويزيد فى حرها الغريزى ويفرح النفس ويذهب الحزن ) (٤٦) .

يذكر ابن زهر أن الاستحمام فى كل عشرة أيام من غير أن يكون الانسان متخما بالطعام فيه ما يحفظ الصحة ، واشار الى أن من القواعد التى يفضل اتباعها استخدام الماء العذب ، وأن يكون معتدلا بين الحرارة والبرودة ، وأن يكون المستحم صائما . وأن فيه ما يعين على دوام الصحة والعافية(٤٧) .

وتجدر الاشارة الى أن الطبقة الثرية فى المجتمع الأندلسى كانت لها حماماتها الخاصة الملحقة بمنازلها ودورها ، وكانوا يمارسون بها عادة الاستحمام بصورة مترفة وباذخة . أما الطبقات الأخرى التى لا تستطيع تأمين ذلك فى منازلها فكان عليها أن تقصد الحمامات العامة التى كانت منتشرة بوفرة كبيرة فى المدن الأندلسية . من ذلك أن مدينة قرطبة وحدها كان بها مايزيد على ٧٠٠ حمام(٤٨) وقد عد ذلك من مفاخر قرطبة ودلائل رقيها وتمدنها . ومن الطريف أن الحمامات لم تكن منتشرة فقط فى المدن بل امتدت هذه الظاهرة الى القرى والأرياف ، ومازالت منطقة البشرات ( جنوب غرناطة ) والمناطق المحيطة بغرناطة بها آثار واضحة لحمامات كان يرتادها الناس ويستحمون فيها . وفى هذا ما يدل دلالة واضحة على المدى الذى وصلت اليه عناية الأندلسيين

بالنظافة وبالتالى تميزهم بذلك القدر من السلوكيات والتقاليد الاجتماعية الراقيـة ٠

وكان الحمام العام يتالف من ممر يؤدى الى غرفة كبيرة بها خزانات خشبية تعلق بها الملابس وتسمى هذه الغرفة «المشلح»(٤٩) ومنها يدخل المستحم الى غرفة المياه الباردة والى جـوارها سرير خشبى مستطيل يضطجع عليه من يرغب فى التدليك ، ثم ينتقل الى الغـرفة الساخنة حيث يغسل جسمه بالمياه الساخنة بواسطة مغارف خشبية ٠ وأخيرا هناك موضع للمزينين ينتهى اليه المستحم ليكمل نظافته وزينته ٠ وتصل المياه الحارة الى الحمام عن طريق أنابيب تنقله من صهريج تسخن فيه المياه بالحطب ويقع خارج الحمام ، وكان الضوء ينفذ الى الداخل بواسطة نوافذ زجاجية مثبتة فى السقف(٥٠) ٠

ولما كانت الحمامات من المرافق الصحية والاجتماعية ذات التأثير الكبير على حياة الفرد والمجتمع ، فقد كان من الضرورى متابعة نشاطها وحالها من حيث الالتزام بقواعد النظافة وسلامتها من الأقذار ٠ من ذلك أن العاملين فى الحمامات ألزموا بنظافة ملابسهم وأدوات النظافة التى يستخدمونها فى تنظيف الأبدان وحك الأقدام، فكانوا يضعونها فى الملح والماء كل ليل لئلا يصيبها العفن والتلوث والروائح الكريهة ، كما وجب عليهم أن يغسلوا ملابس العمل كل ليلة بالصابون(٥١) ٠

أما عن المياه المستخدمة داخل الحمـام فكان يراعى فى صهاريج الحمامات أن تكون مغطاة باحكام لئلا تتسرب اليها النجاسات وما يلوثها٠ وكان من الآداب المرعية أن لايمارس المشتغلون فى الحمامات عملهم - كالحكاك والطياب والحجام - الا بعـد أن يرتدى كـل منهم التبان والسروال(٥٢) ٠

وهناك قواعد وآداب استحسن بعض الأطباء الالتزام بها لبلوغ أقصى درجات النفع والفائدة من دخول الحمام ، اذ يشير الطبيب الأندلسى ابن خلصون الى أن دخول الحمام يكون على خلاء من المعدة ، وفور القوة ، ونشاط النفس ، واعتدال الفصل ، واعتدال النهار ، واذا دخل

المستحم فلا يتجرد من ثيابه الا فى البيت الأول حيث يصب على جسمه من الماء الفاتر من غير أن يبل رأسه ، ثم يدخل الى البيت الثانى فيصب على راسه ثلاث غرفات من الماء الحار ويتجنب الماء البارد ، ثم يغسل رأسه فى البيت الثالث بالماء الحار ، ويصب فيه على بدنه الماء الحار أيضا ، ومنه ينتقل الى البيت الأوسط للاحتكاك وازالة الوسخ عن البدن وتدليكه بعد ذلك ، ثم يعم البدن بالماء الفاتر حتى ينظف جسمه ، ويختتم ذلك بالاغتسال بالماء البارد لان فى ذلك ما يعدل حرارته ويرطب البدن. ويلتزم مراعاة الحال من حيث قدرة الجسم على احتمال ذلك وعدم اصابته بالبرد والرعدة ، وبالتالى الحميات . فاذا فرغ من ذلك يعمد الى تنشيف جسمه بقطعة من الكتان . ويجفف شعره ثم يلبس ثيابه ، ويغطى رأسه ، ويسد أنفه بيده ليحميه من البرد والريح ، ثم يجلس خارج الحمام ساعة حتى تستقر حرارة الجسم ويعود الى طبيعته(٥٣) .

ولما كانت عادة الاستحمام والمحافظة على نظافة الأبدان وطهارتها من المظاهر الحضارية الرفيعة التى اتسم بها المجتمع الاسلامى بوجه عام، والأندلسى بوجه خاص فقد كان ذلك السلوك من الآداب الأصيلة القوية الجذور فى حياة الأندلسيين ، فحافظوا عليه رغم ما حل بهم من ويلات الحروب واستيلاء النصارى على بلادهم ، يشير المؤرخ امريكو كاسترو الى عظم التأثير الحضارى للمسلمين فى حياة الأسبان النصارى وخاصة فى المناطق التى سيطر عليها النصارى فى شمال اسبانيا ، اذ أن قرى صغيرة فى قشتاله لا تعرف حمام الماء الساخن فى عصرنا الحاضر ، كانت تتمتع به سواء فى عصر السيادة الاسلامية أو عصر المدجنين(٥٤) ، ويتضح هذا فى لوائح البلديات . وفى الحمام كانت النساء تجدن مبتغاهن من حيث النظافة والتجمل بعيدا عن تلويث المنابع والأنهار أو حتى فى المنازل(٥٥) ، ومن بين تلك القرى ذوريتا Zorita وبريهويجا Brihuega فى وادى الحجارة ، وأوساجرى Usager فى بطليوس . وقد نصت لوائح بلديات المدن أنه ينبغى على صاحب الحمام أن يقدم لمرتادى الحمام الماء الساخن والصابون والمناشف(٥٦) .

كذلك نجد اشارات تاريخية الى أنه كان فى ميووقه ومدريد

حمامات ترتادها النساء المدجنات . وقد شهد الحى الاسلامى فى مدينة ترسونا فى الشمال الشرقى من الأندلس بناء أحد الحمامات سنة ٧٧٦هـ - ١٣٧٥م ، وكان يقصده الناس جميعهم الا انه حظر على النصارى واليهود دخوله فى الأعياد الاسلامية وايام الجمع(٥٧) .

وفى بعض الحمامات خصصت ايام محددة لكل من الرجال والنساء، حتى لا يقع الاختلاط المؤدى الى الفتنة والفساد . واستمر وجود الحمامات فى الأندلس حتى خروج المسلمين منها نهائيا . ونشير الرواية التاريخية الى أنه بعد اخماد ثورة الموريسكيين على السلطات الاسبانية سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م تقرر طردهم ومحو كل ما يتعلق بحياتهم الاجتماعية وعاداتهم ، فاغلقت حماماتهم وحرم عليهم ارتيادها . وكان لذلك تاثير مؤلم على الموريسكيين حيث قال أحدهم ويدعى فرنسيسكو مولاى Francisco Munez Muley : ( ان الحمامات أقيمت لتنظيف الأجسام ، والقول بأنه يجتمع فيها الرجال والنساء افتراء لا يصدقه العقل والحمامات موجودة فى كل مكان ومنتشرة فى سائر الاقاليم . واذا كان أبناء مملكة غرناطة قد تمسكوا بالحمامات ، فان ذلك بسبب حرصهم على على أن يكونوا أطهار الابدان ، فاذا حرم عليهم الاستحمام فى الحمامات وفى الينابيع والأنهار والبيوت فالى أين يذهبون للغسل والاستحمام ؟ )(٥٨) .

وبنهاية القرن السادس عشر تم هدم كل الحمامات فى انحاء أسبانيا ، ورفض الأسبان الأوربيون عادة الاستحمام لأنها عادة ارتبطت فى نظرهم بالحياة الاسلامية فى الأندلس ، واستمر الحال على ذلك حتى ظهرت الحمامات بعد ذلك من جديد فى انجلترا(٥٩) .

ومن الطريف أن نجد الاسبان يتأثرون أيضا بظاهرة حضارية اسلامية،وهى : غسل وتنظيف الميت قبل دفنه ، فتشير الرواية التاريخية حول ملحمة فرنان جونثالث التى يعود تاريخها الى سنة ٦٢٨هـ/١٢٤٠م الى أن الكونت فرنان جونثالث قام بغسل عدوه كونت دى تولوز قبل أن يلفه فى الأكفان ، والى هذا أشارت المدونة العامة لألفونسو الحكيم(٦٠).

وقد نادى الأطباء المسلمون بالأندلس بضرورة مراعاة النظافة الشخصية والعناية بنظافة الأبدان وطهاراتها للوقاية من بعض الأمراض. من ذلك ما يذكره الطبيب ابن زهر عن حالات مرضية تلحق بالجلد أو الشعر أو الأسنان، وهى من الأعضاء والأطراف التى تمس المظهر الجمالى للانسان،فأشار الى تولد القشرة فى جلدة الرأس ووصف لها موادا طبية لغسل الرأس ، ومنها : خل العنب ، والخل مع العسل . كما نبه الى أهمية القطران فى ازالة القشرة ، ووصف علاجات لمكافحة القمل المتولد من الوسخ اللاصق بالجلد ، وذلك بغسله بالخل والقطران ، وأوصى بالاستحمام وغسل الرأس وعدم اهمال النظافة فى ذلك(٦١) .

كذلك ذكر الادريسى عند حديثه عن مدينة طليطلة أنه تقع بالقرب منها قرية تسمى بمغام ، وأن بها تراب يستعمله الناس فى تنظيف وغسل شعر الرأس(٦٢) .

ولما تعرض ابن زهر للأسنان وما يعتريها من ضعف وتشوه ، وصف علاجا لتقويتها وتبييضها وجليها ، كما نصح بتجنب تناول ما هو شديد الحموضة أو شديد السخونة أو شديد البرودة(٦٣) .

وكان الأندلسيون يولون اهتماما كبيرا بنظافة أيديهم وأفواههم عقب تناول الطعام والشراب . وقد احتفظ لنا أحد أعلام الأندلسيين وهو ابن رزين التجيبى بعدد من الوصفات لتنظيف الأيدى والأفواه واللثة والأسنان وأسماها (الغاسولات) وهذه عناوين بعضها :

١ - أشنان ينظف اليد ويطيب الرائحة ويصلح الفم واللثة ويذهب روائح الأطعمة الدسمة .

٢ - أشنان طيب الرائحة كثير المنفعة يزيل الكلف والنمش ويرطب الأطراف .

٣ - أشنان يطيب البدن والنكهة ويشد اللثة وهو ملوكى .

٤ - غاسول ينقى الأيدى ويذهب الروائح الدسمة(٦٤) .

★ ★ ★

فاذا انتقلنا الى نظافة اللباس عند الأندلسيين لمسنا مدي حرصهم وعنايتهم بهذا الجانب من جوانب الشخصية الأندلسية . وقد ذكرنا آنفا ما قاله ابن سعيد الأندلسى من أن أهل الأندلس أشد الناس اعتناء بمظهرهم ونظافة ما يلبسون ويفرشون ، وأن أحدهم ربما لم يكن معه الا قوت يومه فيحتفظ به ويطوي يومه صائما ليشتري بما يملك صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فى حال تزدريه الأعين .

وكانت هذه الظاهرة من الظواهر الاجتماعية التى اشتهر بها المجتمع الأندلسى ، فيذكر الادريسى أن أهل قرطبة : ( اليهم الانتهاء فى السناء والبهاء .. ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزى فى الملابس والمراكب وعلو الهمة فى المجالس والمراتيب .. )(٦٥) .

ولئن كان هذا الوصف قد ورد في أهل قرطبة فان الحضارة الاسلامية الراقية فى الأندلس لم تكن وقفا علي مدينة قرطبة وانما كانت شاملة لما سواها من المدن الأندلسية الأخري .

فعلى سبيل المثال يقول الأدريسى عن مدينة بسطة : ( ومدينة بسطة مدينة متوسطة المقدار ، حسنة الوضع ، عامرة آهلة ، لها أسوار حصينة ، وسوق نظيفة ، وديار حسنة البناء رائقة المعنى .. )(٦٦) .

ولما تحدث ابن الخطيب فى مقدمة كتابه الاحاطة عن أهالى مملكة غرناطة وصفهم بصلاح العقيدة ، وجميل السيرة وحسن الصورة ، ثم ذكر أزياءهم وملابسهم وعنايتهم بها حتى ليبدون فى أيام الجمع ( كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة )(٦٧) .

★ ★ ★

وعنى الأندلسيون بنظافة منازلهم ودورهم ، اذ من الطبيعى بعدما أشرنا اليه سابقا أن يكون للمنزل أو الدار مكانتهما الاجتماعية اللائقة . ويمكن استخلاص بعض المفاهيم التى تؤكد جمال المظهر المدني ورقي السلوك الاجتماعي ، من خلال تتبع تلك النصوص التاريخية التي كتبها

الرحالة الجغرافيون عن المدينة الأندلسية ووصفها ببديع البنيان ، وحسن التنظيم ، ووصف أهلها بجميل السيرة ، ومنتهى البهاء والسناء ، وطيب العوائد والأخلاق(٦٨) ٠

ومن الطريف أن نجد المحتسب لا يقتصر دوره فى رعاية الجانب الجمالى على الأسواق والشوارع والساحات بل كان له اهتمامه الواضح أيضا بنظافة المنازل ومكافحة الأقذار فى الدور ، فكان يحث الناس على العناية بنظافة دورهم وصيانتها من تراكم الأوساخ والنفايات(٦٩) ٠

وكان يفضل بناء المنازل فى المواقع العالية لئلا تصلها المياه ولا تتأثر بالندى ، ولكى يشرف قاطنـوها على ما تحتها من الأراضى الزراعية والبساتين ٠ ويفضل ان أمكن أن تبنى الدار على شاطىء نهر ، مستقبلة رياح الشمال والشرق حتى تشرق الشمس من أبوابها ونوافذها ، لأن الرياح الشرقية أصح من سواها ، ودخول الشمس الى المنزل تدفع عن ساكنيه الأسقام والأدواء ٠ ويوصى بتوسيعها ورفع سقوفها(٧٠) ٠

ونبه ابن زهر الى أهمية اختيار موقع السـكن من حيث نظافته وصحة هوائه ، فمن الخطر السكن بجوار المقابر ، اذ قـد يسبب ذلك تلوث الهواء المحيط بمجاورة جثث الموتى المتحللة ، كما أن من أسباب تلوث الهواء وجود المستنقعات والمياة الراكدة(٧١) ٠

ونلمس عند ابن زهر ملاحظات وتوجيهات حضارية راقية حـول المسكن وموقعه ونظافته وعلاقة ذلك بصحة الانسان ، فهو عند الحديث عن الأورام الطاعونية يشدد على أهمية اصلاح المسكن ونظافته الى جانب عوامل أخرى ٠ وكان يوصى بأن يفرش المنزل بالريحان ، ويبخر أحيانا بالقطران ، وفى أحيان أخرى يرش المنزل بالخل المركز ٠ ونبه فى هذه الحال الى أن الغرف العلوية خير من البيوت السفلية(٧٢) ٠

ومن المؤسف أن التاريخ لم يحتفظ لنا بنصوص تاريخية وافرة عن البيت الأندلسى وعادات أهله من حيث النظافة والأناقة ٠ ويمكن أن نشير الى بعض ما كتبه بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مملكة غرناطة

فى أواخر الحكم الاسلامى وما سجلوه من مشاهدات المجتمع الأندلسى ، ففى عام٨١٧هـ/١٤١٤م زار غرناطة الرحالة الألمانى خيرونيمو مونزر ، وقد أدهشته نظافة الغرناطيين الشديدة ، ويذكر أن طرقات المدينة كانت ضيقة ، وأن منازل المسلمين كانت صغيرة الحجم وتضم عددا من الغرف . ويضيف أن المنازل كانت بسيطة المظهر من الخارج ، ولكنها تتميز بجمالها ونظافتها من الداخل(٧٣) . واذا كانت النصوص التاريخية لم تعن بأوصاف البيت الأندلسى من الداخل ، فان البقايا الاثرية مازالت قائمة تشهد على جمال هذه البيوت وحسن تنسيقها .

وكانت ظاهرة النظافة وما عرف عن المجتمع الأندلسى من تمسك بها وحرص على الالتزام بها فى الحياة الخاصة والعامة ، مثار اعجاب الغربيين . ويشير ستانلى لينبول الى ذلك بقوله : ( فى حين كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عنالنظافة ويعدونها من عمل الوثنيين، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذراتهم ، حتى أن راهبة دونت بعض مذكراتها فى صلف وعجب أنها الى سن الستين لم يمس الماء منها الا أناملها عندما كنت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس ، نقول بينما كانت القذارة من مميزات القداسة ، وكان المسلمون شديدى الحرص على النظافة ولا يجرؤون على مباشرة عبادتهم الا اذا كانوا متطهرين . وحينما عادت أسبانيا الى الحكم المسيحى أمر فُيليب زوج مارى ملكة انجلترا بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين(٧٤) .

ومن خلال هذا الوصف وما يتعلق بنظافة الانسان المسلم ونزاهته بهذه الصورة المتمدينة صارت البيئة الأندلسية والمحيط الذى كان يعيش فيه الأندلسى مثالا لما كان ينبغى أن تكون عليه المجتمعات الأخرى. وها هو المؤرخ الأمريكى فكتور روبنسون يشير الى أن ( أوربا كانت فى تلك العصور فى ظلام حالك فى الوقت الذى كانت قرطبة تضىء شوارعها وساحاتها المصابيح ، وكانت أوربا قذرة بينما كانت قرطبة تتباهى بأنها تضم ألف حمام ، وكانت أوربا غارقة فى الوحل تسودها الهوام والحشرات بينما كان الأندلسيون مثال النظافة والرقى الحضارى)(٧٥).

★ ★ ★

وأخيرا نختتم هذا البحث المتواضع بالاشارة الى عدد من الأمثال السائرة والحكم المعبرة التى تداولتها ألسن العوام الأندلسيين حول أهمية النظافة وقيمتها كمظهر من مظاهر التمدن والسلوك الأخلاقى الجميل ، ونفورهم من كل ما يخالف ذلك من ألوان القذارة واهمال العناية بنظافة الجسد وطهارة المنظر والسلوك العام لدى الانسان • ومن الأمثال الأندلسية التى لها صلة بالبيت الأندلسى ما ينم عن صفات ربة المنزل وضرورة أن تكون رمزا للنظافة • فاذا كان أمرها يخالف ذلك فان التخلص منها هو العلاج الأمثل•لذلك دعوا الى تطليق المرأة التى تمتخط فى قناعها أو تدخل أصبعها فى أنفها ، فيقول المثل الشعبى : « اذا ريت المرا تمخط فى قنعها (خمارها) وتخرج المفتول بأصبعها لا تبقى معها )(٧٦) •

ويقول المثل أيضا حول المرأة : ( كل شىء يهون الا الغزل المعفون )(٧٧) •

ومثل آخر : ( سمج ومقذور حر غير مشكور )(٧٨) •

ومن أمثالهم حول الطبخ وأهمية مراعاة النظافة فيه أن هناك ألوانا منه لا يصلح طبخها الا فى قدور مخصوصة تراعى نظافتها وخلوها من الأقذار والملوثات يقول المثل : ( قدرة الزفت ما يطبخ فيها معسل )(٧٩)•

كذلك بالغوا فى وصف أولئك الذين اهملوا النظافة فقالوا : ( أقذر من ولد ناصر الطباخ ، الذى كان يقتل القمل على صلب المغرفة ، ويمسح المغرفة فى صلب الكلب )(٨٠) •

ولم يفت الأندلسيون في أمثالهم أهمية نظافة الطريق والبيت وتنزيههما عن الأقذار ، فظاهرة البصق على الأرض من الأفعال المستقبحة والعادات المستقذرة • ويقول المثل : ( بحل (بحال) ربى ( حبر اليهود ) فى شنوغ ( معبد اليهود ) يتحرك ويبزق ) (٨١) •

ويقول المثل الآخر مستحسنا كنس المواضع وتنظيفها :

( كنس وجلس )(٨٢) ٠

وكانوا يبغضون انتشار الذباب والحشرات ويعدونها من المنغصات فيقول المثل :

( ما كفى العيش المر الافيه الدبان ) ( وما كفى الزيت المر الا فيه الدبان )(٨٣) ٠

## الهـــــوامش

(١) رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ، ص ٤٣ ( وتقع هذه الرسالة مع رسالتين أخريين فى الحسبة وهما رسالة أحمد بن عبد الرؤوف فى آداب الحســبة والمحتسب ورسالة عمر بن عثمان الجرسيفى فى الحسبة فى كتاب وقــد قام على نشرها ليفى بروفنسال تحت عنوان ثلاث رسائل اندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب سنة ١٩٥٥م ٠

(٢) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ ٠ ص ٥٥١ وانظر أيضا ص ٥٤٣٠

(٣) ابن عبد الرؤوف ، رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٧ ٠

(٤) رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٨ ٠

(٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٤ ٠

(٦) ابن عبد الرؤوف ، ص ٤٤ و ص ٤٧ ٠

(٧) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٣ ــ السقطى ، ص ٤٩ ٠

(٨) القنليات : جمع قنلية ، وهو حيوان شبيه بالأرنب لحمه لذيذ وفراؤه مرغوب فيه للباس ، أنظر المقرى ، نفح الطيب ، ج١/١٩٨ لحاشية (٤) ٠

(٩) ابن عبدون : ص ٤٣ ٠

(١٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ ــ ٩٧ ٠ وانظر ابن عبدون ص ٤٥ والسقطى ص ٥٠ ٠

(١١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(١٢) مجصصة : أى مطلية بالجص ( لسان العرب ، ج٧ مادة جصص ) ٠

(١٣) فى آداب الحسبة ، ص ٥٠ ــ ٥١ ــ وانظر التجيبى : فضالة الخوان ص ٣١ ٠

(١٤) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ ٠

(١٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٨ ٠

(١٦) فضالة الخوان ، ص ٣١ ٠

(١٧) التيسير : ص ٤٩٩ ٠

(١٨) ابن عبدون ــ القضاء والحسبة ، ص ٤٥ ــ السقطى ، آداب الحسبة ، ص ٥٣ ٠ والقدور المرصصة أى : المطلية بالرصاص ( لسان العرب ، مادة رصص)٠

(١٩) السقطى ، ص ٤٥ ٠

(٢٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ ــ ٩١ ٠

(٢١) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ ٠

(٢٢) ابن عبد الرؤوف ـ رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٢ ٠

(٢٣) الحنتم ـ نوع من الطين تصنع منه الأوانى المزججه من الداخل ٠ وفى لسان العرب : مادة حنتم أنه جرار خضر تضرب الى الحمرة ٠

(٢٤) ابن عبدون ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ٠

(٢٥) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٥٢ ٠

(٢٦) ابن عبدون ، ص ٤٢ ٠

(*) السرب حفير تحت الأرض ، أو قناة جوفاء يدخل منها الماء الحائط ( لسان العرب ـ مادة سرب ) ٠

(٢٧) ابن عبدون : القضاء والحسبة ، ص ٣٧ ٠ ابن عبد الرؤوف : رسالة فى آداب الحسبة ، ص ١١٠ ـ الجرسيفى : رسالة فى الحسبة ، ص ١٢٢ ٠

(٢٨) عبد الرؤوف ، ص ١١١ ٠

(٢٩) ابن عبدون : ص ٣٨ ـ ابن عبد الرؤوف : ص ١١١ ـ يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، ص ١٠٢ ٠

(٣٠) التيسير فى المداوة والتدبير ، ص ١٤٠ ٠

(٣١) الجرسيفى : رسالة فى الحسبة ص ١٢٢ ـ ابن عبد الرؤوف : رسالة فى آداب الحسبة ، ص ١١١ وانظر يوسف شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ص١٠٢٠

(٣٢) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(٣٣) ابن عبد الرؤوف : فى آداب الحسبة ، ص ٧٣ ٠ أنظر ص ١١١ ٠

(٣٤) ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٢٢ ٠

(٣٥) السقطى ، ص ٨٤ ٠

(٣٦) ابن عبدون ، ص ٢٣ ٠

(٣٧) ابن عبدون ، ص ٢٤ ٠

(٣٨) ابن عبدون ، ص ٢٤ ٠

(٣٩) ص ٣٠ ٠

(٤٠) ابن عبدون ، ص ٣٢ ٠ رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٢ ٠

(٤١) ابن عبدون ، ص ٣٦ ٠

(٤٢) ابن عبد الرؤوف ، ص ١١٣ ٠

(٤٣) السقطى ، ص ٨٤ ٠

(٤٤) ابن عبدون ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ٠

(*) ابن سعيد على بن موسى مؤرخ وأديب أندلسى له تآليف فى تاريخ الأندلس كالمغرب فى حلى المغرب والقدح المعلى ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ٠

(٤٥) نفح الطيب ، ح١ ، ص ٢٢٣ ٠

(٤٦) ابن خلصون : حفظ الصحة ، المقالة الثالثة ٠ ضمن كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية ، تأليف محمد العربى ح٢ ، ص ٢٠ ٠

(٤٧) التيسير ، ص ٩ ــ ١٠ ٠

(٤٨) ابن غالب : فرحة الانفس ، جزء من الكتاب المفقـــود ٠ تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج١ ، الجزء الأول ، ص ٢٩٦ ٠

(٤٩) وردت فى دائرة المعارف الاسلامية ، المســـلخ والصحيح ما ذكـــرناه والمشلح موضع خلع الثياب فى الحمام من التشليح وهو خلع الثياب ٠ وانظر تقسيمات الحمام فى دائرة المعارف الاسلامية مادة : حمام ٠

(٥٠) يوسف شكرى : غرناطة ، ص ١٣٢ ٠

(٥١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(٥٢) ابن عبدون : رسالة القضاء والحسبة ، ص ٤٨ ٠

(٥٣) حفظ الصحة : المقالة الثالثة ٠ ضمن كتاب الطـــب والأطباء ، ح٢ ، ص ٢٠ ــ ٢١ ٠

(٥٤) المدجنون هم المسلمون الذين عاشوا فى ظل الحكم النصرانى بعد سقوط المدن الأندلسية فى أيدى الأسبان ٠

(٥٥) حضارة الاسلام فى أسبانيا ، ترجمة سليمان العطار ، ص ٤٧ ــ ٤٨ ٠

(٥٦) لطفى عبد البديع : الاسلام فى أسبانيا ، ص ٩٢ ٠ نقلا عن النســـخة الأسبانية من كتاب Americo Castro : Espana en su historia. P83.91

(٥٧) يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى نصر ، ص ١٣٣ ٠

(٥٨) لطفى عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٩٢ ــ ٩٣ ٠

(٥٩) أمريكو كاسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠ يوسف شكرى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ٠

(٦٠) امريكو كاسترو ، حضارة الاسلام فى أسبانيا ص ٤٨ ٠ وانظر لطفى عبد البديع ٠ الاسلام فى أسبانيا ، ص ٩٣ ــ ٩٤ ٠

(٦١) ابن زهر ، التيسير ، ص ٢٣ وما بعدها ٠

(٦٢) نزهة المشتاق ، ج٢ ، ص ٥٥٢ ٠

(٦٣) التيسير ، ص ٢٤ ــ ٤٥ وفيها انظر وصفا كاملا للعلاجات والوصفات الطبية لمعالجة الاسنان وتنظيفها ٠

(٦٤) فضالة الخوان فى طبيات الطعام والألوان ، ص ٢٧٧ وما بعدها وفيها تفصيل كل صفة وما تتكون منه من مواد عطرية وأعشاب ٠

(٦٥) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ ، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ ٠

(٦٦) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦٨ وأنظر أيضا الاشارة الى مدينة شلب ، ص ٥٤٣ ٠

(٦٧) الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج١ ، ص ١٣٥ ٠

(٦٨) انظر الادريسى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٧٥ ، ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ـ الحميرى ٠ الروض المعطار ، ص ٤٥٦ وما بعدها ، ابن الشباط : قطعة فى وصف الأندلس من كتاب صلة السمط ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، ص ١٣٩ ـ ١٤٢ ـ ١٥٠ ـ ابن سعيد : المرب ، ج١ ، ص ٢٩٣ ٠

(٦٩) انظر ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٧ ٠

(٧٠) ابن حجاج ، المقنع فى الفلاحة ، ص ٩ ٠

(٧١) التيسير ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ ٠

(٧٢) التيسير ، ص ٤٢١ ٠ ونجد فى كتاب المقنع لابن حجاج وصف مواد لمكافحة الفئران والبراغيث والنمل والذباب والبق والبعوض وكثير من الحشرات ٠

(٧٣) أحمد الطوخى : غرناطة الاسلامية فى نظر الرحالة الاجانب مقال ، بمجلة أوراق ( العدد الرابع ، ١٩٨١م ، ص ١٤٣ ) ٠

(٧٤) قصة العرب فى أسبانيا ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ٠

(٧٥) محمد حامد منصور ، ذكريات ومشاهدات اندلسية ، ( مقال منشور بمجلة الفيصل ، العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ ، ص ٤٩ ٠

(٧٦) الزجالى ( أمثال العاوم ) ٠ تحقيق محمد بن شريفه ٠ ق٢ ، ص ١٣ ٠

(٧٧) المصدر والقسم نفسه ، ص ٢٥٥ ، ص ٤٢٦ ٠

(٧٨) المصدر نفسه والقسم ، ص ٤٢٦ ٠

(٧٩) ق٢ ، ص ٤١٨ ٠

(٨٠) ق٢ ،ص ١١٥ ٠

(٨١) ق٢ ، ص ١٤٤ ٠

(٨٢) ق٢ ، ص ٢٦٨ ٠

(٨٣) ق٢ ، ص ٣٤٦ ٠

## مصادر ومراجع البحث

**أولا : المصـادر :**


— الأدريسى . محمد بن محمد ( ق٦هـ)
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (د.ت) .

— التجيبى . على بن محمد (ق٧هـ)
فضالة الخوان فى طيبات الطعام والألوان . تحقيق محمـــد بن شثرون دار المغرب الاسلامى . الرباط . ط الأولى ١٩٨٤م .

— الجرسيقى عمر بن عثمان ( ق٦هـ)
رسالة فى الحسبة . تحقيق ليفى بروفنسال . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .

— ابن حجاج . أحمد بن محمد ( ق ٥هـ )
المقنع فى الفلاحة . تحقيق صلاح جرار ، جاسر أبو صـــفية . مجمع اللغة العربية الاردنى ، ١٤٠٢هـ .

— الحميرى . محمد بن عبد المنعم ( ت حوالى ٧١٠هـ )
الروض المعطار فى حبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت . ط الثانية ١٩٨٠م .

— ابن الخطيب . لسان الدين محمد ( ت ٧٧٦هـ )
الاحاطة فى أخبار غرناطة.تحقيق محمد عنان . مكتبة الخانجى. القاهرة . ط الأولى ١٣٩٤هـ .

— ابن خلصون . محمد بن يوسف ( ق ٧ هـ )
فصول من المقالة الثالثة من كتابه الأغذية وحفظ الصحة . منشورة فى كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية لمحمـــد العربى ، ج٢ ، دار الغرب الاسلامى . بيروت ، ط الأولى ١٩٨٨م .

— الزجالى · عبيد الله بن أحمد ( ت ٦٩٤هـ )
أمثال العوام · دراسة محمد بن شريفة · مطبعة محمد الخامس · فاس ١٣٩١هـ ·

— ابن زهر · عبد الملك بن أبى العلاء ( ت ٥٥٧ هـ )
التيسير فى المداواة والتدبير · تحقيق ميشيل الخورى · دار الفكر · دمشق ط الأولى ١٤٠٣هـ ·

— ابن سعيد · على بن موسى ( ت ٦٨٥هـ )
المغرب فى حلى المغرب · تحقيق شوقى ضيف · دار المعارف · القاهرة ط الثالثة ·

— السقطى · محمد بن أبى محمد ( ق ٥هـ )
فى آداب الحسبة · تحقيق د· حسن الزين · مؤسسة دار الفكر الحديث · بيروت ١٤٠٧هـ ·

— ابن عبد الرؤوف · أحمد بن عبد الله ( ق ٥هـ )
رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب · تحقيق ليفى بروفنسال مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية · القاهرة ١٩٥٥م ·

— ابن عبدون · محمد بن أحمد ( ق ٥هـ )
رسالة فى القضاء والحسبة · تحقيق ليفى بروفنسال · مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية · القاهرة ١٩٥٥م ·

— ابن غالب · محمد بن أيوب ( ق ٦هـ )
فرحة الأنفس · تحقيق لطفى عبد البديع · مجلة معهد المخطوطات العربية · ج١ الجزء الأول ( ٢٧٢ – ٣١٠ ) ·

**ثانيا : المراجع :**

— امريكو كاسترو : حضارة الاسلام فى اسبانيا · ترجمة د· سليمان العطار ، دار الثقافة · القاهرة ١٩٨٣م ·

— ستانلى لينبول • قصة العرب فى اسبانيا • ترجمة على الجارم دار المعارف • مصر •

— لطفى عبد البريع • الاسلام فى اسبانيا • مكتبة النهضة المصرية • القاهرة ، ط ١٩٦٩م •

— يوسف شكرى • غرناطة فى طل بنى الأحمر • المؤسسة الجامعية للدراسات الجامعية والنشر ، بيروت ، ط الأولى •


**ثالثا : المقـــالات :**


— أحمد الطوخى • غرناطة الاسلامية فى نظـــر الرحالة الأجانـــب ( مقالة منشورة بمجلة أوراق • المعهد الاسبانى العربى للثقافة )•

— محمد حامد منصور • ذكريات ومشاهدات أندلسية (مقالة منشورة بمجلة الفيصل العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ ) •

— دائرة المعارف الاسلامية • ترجمة أحمد الشنتناوى وآخرون • دار الفكر ، ١٩٣٣م •